آخر من المشرق. ولا يخفى ما لهذه الرسالة من الاهمّيـة لأنّ صاحبها كان شاهدًا عيانيًا عارفًا حقّ معرفة بلغة البلاد وعاداتها ومخالطًا للمراونة سنين عديدة فكان اذًا من الواقفين كل الوقوف على حالتهم

الكونت رشيد الدحداح واسرتهُ

للشاب الاديب والكاتب المحقق الشيخ سليم خطّار الدحداح (تتمّة لما سبق)

٣ الكونت رشيد الدحداح في فرنسة

ولمّا قنط من التجـارة وعرف سوء عقباها اقرأها الوداع ووقف نفسهُ على خدمة المعارف والعلوم. وكان شغلهُ بالتجارة قبل ذلك لم يصرف نظرهُ عن الآداب. فانهُ كأن عثر على شرحَين مستوفيين احدهما للشيخ حسن البوريني والآخر للسيد عبد الغني النابلسي على ديوان الشيخ عمر الشهير بابن الفارض فوفّق بينهما وطبع الكتاب في مرسيلية سنة ١٨٥٥ (ص٥٩٦). وقد صدّر الاب بارجس الافرنسي هـذه الطبعة بمقدّمة افرنسيّة اثنى فيها على همّة الكونت. وهذه الطبعة لا تزال الى يومنا تفضل ما سواها من شروح هـذا الديوان. ومن غرائب الامور انّ هذه الطبعة جُدّدت بمصر بالمطبعة الخيريّة اعاد طبعها جناب محمد الاسيوطي سنة ١٣١٠ (١٨٩٣) وسكت عن اسم الكونت الدحداح ودعاهُ « رُشيد بن غالب المجتبي » وجعلهُ مسلمًا في فاتحـة الكتاب. ولا نعلم كيف المذكور استجاز ذلك

ثمّ حدا بالكونت رُشيد حبُّهُ للآداب الى ان انشأ جريدة عربية افرنسيّة تولى ادارتها وتحريرها في باريس مدّة ثلاث سنوات وسمّاها « پرجيس باريس » اي نَسر باريس. وقد خدم بها وطنهُ خدمةً نصوحًا. ولهُ فيها المقالات الخطيرة البليغة المعاني الفصيحة الالفاظ نتأسّف من ان نطاق هذه المقالة لا يسمح بادراج قطرات منها. ومما نشرهُ وقتئذٍ تعريب مقالة سياسيّة للسيو دي لا كيرونيار (de la Guéronnière) احد مشيري الدولة في عهد نابليون الثالث دعاها « كتاب التمثال السياسي » (ص ٥٦) لهُ في

اولها مقدّمة افرنسية وفي آخرها قصيدة في مدح نابوليون هذا مطلعها :

ماذا على المستعلي اعلى ذرى الدُّوَلِ حتى يفوق كرام الاعصر الاولِ

وقد ألحق هذه المقالة بنبذة ثانية (سنة ١٨٦٠) تحتوي بيان حسن حال فرنسة في عهد نابوليون (ص ٦٢) قدّمها لصاحب الفخامة الباي محمد الصادق في تونس

وقد اهتمّ في الزمن نفسهِ بنشر مجموعة اشعار حكميَّة لاشهر شعراء العرب جعلها ابوابًا مختلفة حسب معانيها وسمّاها « طرب المسامع في الكلام الجامع » طُبعت في باريس سنة ١٨٦١ (ص ١٣٦)

وقد عادت عليهِ اشغالهُ العلميَّة بالشهرة الواسعة وجعلتهُ في مقدّمة ارباب القلم. وقد ارتبط من ذلك الوقت بعلائق متصلة مع مشاهير ارباب المعارف من ابناء لغتنا العربيَّة تشهد على ذلك مراسلاتهُ المتواترة مع المرحومَين صاحب السيف والقلم الامير عبد القادر الحسيني الجزائري ومنشئ الجوائب احمد فارس الشدياق وغيرهم من فطاحل اللغة وارباب العلم

وفي خلال السنة ١٨٦٢—١٨٦٤ تقرّب الى سموّ باي تونس وكان هذا قد حضر الى فرنسة لاجل عقد قرض ومشترى اسلحة وذخائر حربيَّة لدولتهِ. فدخل الشيخ رُشيد في مهمّتهِ وقد عيّنهُ ترجمانهُ واعطاهُ سلطةً ونفوذًا لم يحصل عليهما قبلهُ احد من الاجانب في تونس. والحق يُقال انهُ لم يكن يرجو الباي ان ينال ما نال بواسطتهِ. فانهُ قد عقد قرضًا بشروط موافقة جدًّا لم يكن ليتأمل الحصول على بعضها. سيَّما وانهُ كان بينهُ وبين فرنسة وقتئذٍ منازعات سياسيَّة وكانت الثقة بمالية تونس وادارتها قليلة جدًّا. فقد توفّر للباي بواسطة رُشيد الحصول على اسلحة وذخائر من احسن صنف بمبالغ زهيدة جدًّا بالنسبة الى مشترياتهِ السابقة فتقدّم الى الشيخ بمبلغ عظيم جملهُ هديةً منهُ لهُ مكافأةً على تعبهِ ونشاطهِ وامانتهِ وصدق خدمته. واحبَّهُ كثيرًا واعلى منزلتهُ. وهو اول اجنبي مسيحي حاز ما حاز في تونس. ولهُ تحاريرعن حالة تلك البلاد تشهد لهُ بالحمية والعدالة والغيرة والخبرة وعزّة النفس والشهامة. . وقد مدح الباي بقصيدة لامية مشهورة تربو على الثمانين بيتًا عارض فيها معلّقة زهير الطائرة الصيت وتعرّف في تونس بالشيخ محمود قبّادو التونسي وتمكنت بينهما عُرى الوداد

وسنة ١٨٦٤ عاد رُشيد نهائيًّا الى فرنسة واستوطن باريس حيث اقتنى قصرًا

بديعاً تكتنفها جنّة غنّاء. كان يستقبل فيها كبراء الشرق الذين كانوا يؤمّون عاصمة الفرنسيس. وقد قسم دارهُ الى قسمين: الاول باثاث ورياش على الطرز الشرقي السوري وكان يقدّم لضيوفه فيه الخدمة على نسق عوائد لبنان. والثاني افرنسي الهيئة والعوائد. وفي هذا القصر اضاف الامراء المصريين انسباء المرحوم اسميل باشا

وفيه ايضاً استقبل المثلث الرحمات البطريرك بولس مسعد وهو عائد من احتفالات القديس بطرس القرنية برومية سنة ١٨٦٧ الى باريس لمقابلة نابوليون الثالث والتفرج على معرض باريس العام. وكان بمعيّة غبطته كل من السيّدين المرحومين المطران بطرس البستاني والمطران يوحنّا الحاج الذي مات بطريركاً والخوري نعمة الله الدحداح شقيق رُشيد والخوري حنّا حبيب اللذين توفيا بعد ان نالا الاسقفيّة والخوري يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت حالياً والشمامسة بطرس الخوري وخليل مارون وهما الان الخوري بطرس حنّا الخوري الدلبتاوي والخوري بطرس مارون نائب ابرشية صيدا. وكان في خدمتهم عدد من الحشم والشمامسة. فنزلوا على الكونت رُشيد ضيوفاً كراماً لاقوا في قصره من الحفاوة والاكرام ما يقصر عن وصفه القلم. وكانت الوزراء والسفراء وارباب الكهنوت يزدحمون في داره لمواجهة غبطة البطريرك. وقد اطال في شرح ذلك سيادة الراعي المفضال المطران يوسف الدبس في كتابه المعنون «سِفر الأخبار في سفر الاحبار»

وفي تلك السنة انعم السعيد الذكر البابا بيوس التاسع بلقب كونت رومانى على الشيخ رشيد وعلى بكر انجاله وسلالته من بعده وذلك مكافأةً له على اعماله المبرورة وخلوص خدمته للكنيسة والوطن معاً. ثم عاد بعد مدّةٍ قداسة الحبر الاعظم وشمل بهذه النعمة جميع اولاده وذريّتهم من بعدهم

وفي سنة ١٨٧٢ احرز الكونت رُشيد الدحداح شرفاً عظيماً اذ رقّى البطريرك بولس مسعد شقيقهُ عبّاساً (١) ثالث اولاد الشيخ غالب الى منصب الاسقفية وعيّنهُ

(١) ولد عبّاس سنة ١٨١٨ وأُرسل سنة ١٨٣٢ الى مدرسة افنشار الايمان في رومية العظمى فدرس فيها مدّة ١٣ سنة كلّ العلوم الاكليريكيّة نبرع فيها ونال شهادة الملفنة في الفلسفة واللاهوت وكان يتقن التكلّم والكتابة بعدّة لغات كالايطالية والافرنسية والانكليزية. اما اللاتينية فكان يُعدّ من كتبتها المتضلعين. وفي آخر دروسه سامهُ كاهناً سلفهُ القديم المطران نقولا مراد باسم نعمة الله. ولمّا عاد الى سورية تولى تدريس اللغات الاجنبية في مدرسة عين ورقة الشهيرة مع مراقبة الدروس

على ابرشية دمشق فزان هذا الكرسي بفضائله لاسيما بنزاهته وحبه للفقراء مدة ١٨ سنة وكان يقيم غالباً بالدار البطريركية يسعى في كل امور الطائفة بجد ونشاط حتى ان غبطة البطريرك بولس كان يعده كيده اليمنى لا يأتي امراً دون مخابرته. وكثيراً ما دافع بحزم واقدام عن حقوق البطريرك والاساقفة حتى فاز بالمرام. توفي رحمهُ الله في غرة تشرين الاول سنة ١٨٩٠ في دير سيدة نسيبه للرهبان الموارنة البلديين وعمرهُ ٧٢ عاماً فصار لهُ مأتم عظيم ومناحة مؤثرة وقد اخلف بدلاً من الثروة اسماً ممجداً وذكر فضائله لا يزال شائعاً في كل بلادنا

اما الكونت رُشيد فلما رأى ما نالهُ من الجاه والمقام الرفيع قنع بما صارت اليه امورهُ ولم يعُد يطمع بالتجارة. وفي سنة ١٨٧٥ اشترى لهُ ولآله الكرام على شاطئ بحر المانش في الشمال الغربي من مقاطعة ايل وثيلان (Ille-et-Vilaine) قرية حقيرة مع ما يلحق بها من الاراضي المرملة الواسعة فانشأ فيها بلدة لها اليوم شأن ولاهلها سعة وحسن حال تُعدّ من مرافئ فرنسة. وهي تدعى دينار (Dinard) فاجال فيها يد العمارة ووفّر لها اسباب المعاش ووفّر طريقاً للعربات واوصل اليها السكة الحديدية حتى صار يقصدها اهل الثروة من الانكليز وسواهم يقضون فيها فصل الصيف فادرَّ الله عليهِ بذلك اخلافَ الرزق ثم شيَّد فيها صرحاً شاهقاً بديعاً دعاهُ قصر الضفتين (château des deux rives) فسكنهُ وهجر منذ ذلك الحين باريس وانقطع الى العيشة الاهلية بعيداً عن ضوضاء المدن الكبرى

وكان مع ذلك لا يزال يأنس بالتأليف والمطالعة ويكاتب مشاهير زمانهِ من محبي

فيها. ثم اختارهُ البطريرك بولس مسعد سنة ١٨٥٥ كاتباً لاسراره فبقي في هذه الرتبة الى سنة تسفيره في شباط سنة ١٨٧٢. وهو الذي ترأس الوفد الذي ارسلهُ السيد البطريرك عام ١٨٨٧ لتهنئة قداسة البابا لاون الثالث عشر في بوبيلو الكهنوتي. فنال هو والسيدان المرحومان المطران بطرس البستاني والمطران يوسف الرغبي والخوري بولس بصبوص اسقف صيدناء الحالي من سموّ التفات امام الاحبار والكرادلة ما كان فخراً للطائفة المارونية. وكان اثناء وجودهِ في روية وبوبيلو في فرنسة موضوع ثناء الجرائد ومديح رؤساء الكنيسة. وهو اول من فاتح قداسة الحبر الاعظم بامر احياء المدرسة المارونية في روية فاجاب البابا الى طلبتهِ واعلم غبطة البطريرك برضاهُ عن هذا المشروع العظيم الذي ما لبث ان خرج الى حيز الوجود. وقد وفّق الله غبطة بطريركنا الحالي السيد الفضال الياس بطرس الحويك على اكمال هذا العمل الخطير في عهد سلفهِ المأسوف الرحمات البطريرك يوحنا الحاج

اللسان العربي. ومن التآليف التي نشرها وقتئذٍ كتاب «قِطرة طوامير» نشرهُ في باريس بعد طبعهِ في قبنة سنة ١٨٨٠ (ص٩٦+٢١) ضمَّنهُ مقالات ادبيَّة وفوائد عديدة لغويَّة وهذا آخر ما انتهت اليهِ سلسلة مطبوعاتهِ. وممَّا نشرهُ قبل ذلك بمدَّة كتاب فقه اللغة لابي منصور الثعالبي طُبع في باريس سنة ١٨٦١ (ص ١٥+١٧٢) وهي اوَّل طبعة لهذا الكتاب النفيس الذي جُدِّد طبعهُ في مصر (١٢٨٤ﻫ) ثمَّ ضُبط في بيروت بالشكل الكامل في مطبعة الآباء اليسوعيين مع مقدِّمات وملحقات وفهارس (١٨٨٥. ص ٢٨+١٣٢)

وقد رزق الله الكونت رُشيد من قرينتهِ مرتا كريمة الشيخ مرعي خمسة اولاد روزا والفونس وبولس ويوسف وابنة توفيت صغيرة

فروزا هجرت العالم وتعبَّدت لله في رهبانيَّة الترابيستيَّات (Trappistines) فتوفَّاها الله في شرخ شبابها. والفونس وُلد سنة ١٨٥٣ وبعد ان قضى سنة ١٨٦٣ في مدرسة عين طورا أُدخل مدارس فرنسة فتخرَّج فيها وقد اشتهر بذكائهِ وشهامتهِ وعزَّة نفسهِ. وكانت ولادة بولس سنة ١٨٥٥ في لندرة وتخرَّج في مدارس فرنسة. امَّا يوسف فوُلد سنة ١٨٦٠. وهؤلاء الاخوة مع تضلُّع والدهم باللغة وشهرتهِ في كتابتها لم يتعلَّموا منها شيئاً

وقد سعى الكونت في سني عمرهِ الاخيرة بان يقرن بنيهِ بعائلات فرنسة الشريفة العريقة في الحسب كما انهُ عُني بتحسين اوزانهِ واصلاح تآليفهِ التي لم يزل قسمٌ منها مخطوطاً من جملتها تاريخ كبير في مجلدات عديدة دعاهُ «السيَّار المُشرق في بَوار المشرق» ونقل عنهُ نُتفاً في كتاب القِطرة (ص١٩ و٢٢) ومنها ايضاً رسالة في فنّ المناظرات يُنيف عدد صفحاتها على الخمسين انشأها تحت عنوان «ترويح البال في القلم والمال» كان الكونت رُشيد فوَّض الى المرحوم الشيخ يوسف خطَّار الدحداح ان ينشرها بالطبع فاختطفتها يد الضياع ولم نجد منها بين اوراقهِ غير المقدِّمة التي احبَّ الشيخ يوسف انَّ يصدِّر بها هذه الرسالة. دونك ديباجتها:

الحمد لله. يقول كاتبهُ يوسف بن خطَّار بن جمجاه الدحداح اللبناني متشفِّعاً النونسي. وطالما قد اطلعني على عاتق المفاخرة. مؤلفها الذي لم تزل قُلك الافاضة بمجاذيف اقلامهِ في بحر التهذيب ماخرة. وطروس آدابهِ بكؤوس الحندريس ساخرة. الشهم المجرَّب بالفلاح. الكونط رُشيد الدحداح. . . . فرأيتُ منها أُطروفة لطيفة المسلك. قيمة المادَّة والمسبك. تشهد لصاحبها بالتقدُّم في صناعة الانشاء.

والتقلُّب في المقامات الخطابيَّة كيف ما شيء منهُ او شاء . . . .

وللكونت ايضاً غير ذلك من المراسلات النثريَّة والنظميَّة والمكاتبات الادبيَّة والتحاوير اللغويَّة التي دارت بينهُ وبين مشاهير عصرهِ من نصارى ومسلمين لا يسمح ضيق المقام بذكرها

وكانت دار الكونت رُشيد في باريس وديناً منتجعاً لاهل الفضل يتقاطر اليها الاعيان لما يرون في صاحبها من اللطف والآداب وسعة المعارف ويشهد على عظم شأنهِ اعتبار امائل فرنسة لهُ وقد احبَّ ثلاث من اكبر اسراتها مصاهرتهُ وقرن اصحابها بناتهم باولادهِ كما سيأتي

امَّا اهلهُ واقاربهُ فكان الكونت محافظاً على ودادهم يساعدهم في حاجاتهم ما استطاع وقد زارهُ منهم قوم في باريس وديناً نخصُّ منهم بالذكر الشيوخ المرحومين اخاهُ سلُّوماً (١ ورفيَّاضاً دحداح (٢ وقعدان (٣ ويوسف خطَّار (٤

١) ذهب الشيخ سلوم الى فرنسة لمساعدة اخيهِ في التجارة فبقي عندهُ ستَّ سنوات في فرنسة وانكلترة واحسن اللغة الانكليزيَّة . ثم عاد الى وطنهِ سنة ١٨٥٦ وخلف بعدهُ اخاهُ خليل في المديريَّة فتوح وساسها ١٧ سنة بالعدل والنشاط والحكمة . ثم قام باعباء هذه المديريَّة بعدهُ جناب رفيقهُ الشيخ اسد الدحداح . وكانت وفاة الشيخ سلُّوم في ٣ ك ٢ من السنة الجارية ولهُ من العمر ٨٠ سنة

٢) زار المرحوم الشيخ فيَّاض دحداح الدحداح فرنسا سائحاً ليرى غرائب الغرب وبداعهُ فسرَّ بهِ الكونت رُشيد لما وجد فيهِ من الذكاء وحسن معرفتهِ للغة العربيَّة وانشاده اشعارها

٣) وهو الاب الجليل الخوري يوحنَّا الدحداح كان سافر الى باريس لبعض اشغال حالت الموانع دون قضائها ثم حضر من قبل الكونت الى مصر فلقي من خديويها الاسبق اسماعيل باشا تجلَّةً واحتفاء لما كان بينهُ وبين رُشيد من المودَّة وروابط الولاء

٤) تبيَّن هذا الشيخ ترجمانًا في دوائر حكومة تونس واخذ يكاتب الشيخ رُشيد فعرف الكونت من هذه المراسلات ما كان عليهِ يوسف من النجابة والبراعة في الكتابة والحثَّ عليهِ بان يقدم عليهِ في باريس . فلبَّى دعوتهُ غير مرَّة . ولو عددنا الرسالات التي تبادلها الكونت والشيخ يوسف لأربت على المئة في مواضيع مختلفة تدلُّ كلها على قدرة كليهما في الانشاء ومعارفها الجمَّة . ولسوء الحظ قد تلفت اكثر هذه الرسائل عند وفاة الشيخ يوسف خطَّار . وللمذكور قصائد وصف فيها «قصر الضفَّتين» وأسرة الكونت ننشرها ان شاء الله في كتاب مطوَّل نذكر فيهِ اخبار لبنان عمومًا والاسرة الدحداحيَّة خصوصًا . توفي الشيخ يوسف في غاية ايلول سنة ١٨٩١ وهو في عنفوان الشباب وكان قضى ٩ سنوات في تونس والجزائر وفرنسة ثم عاد الى وطنهِ بعد وفاة الكونت رُشيد بشهر قليلة فمات مأسوفًا عليهِ من جميع معارفهِ

ولم يقصر الكونت حبَّهُ على اهلهِ واقاربهِ وانَّما كان يتحفَّى بكلّ السوريين الذين تسوقهم الاقدار الى باريس او دينار . لنا على ذلك شاهد في ما كتبهُ المرحوم الخوري لويس زوين في كتابهِ الفرنسوي المعنون « تذكار مسافر لبناني » فانهُ اثنى على الكونت واتسع في ما لقيهُ من الاكرام والحفاوة في قصر دينار الذي وصفهُ ببلغ عبارة

ومن آثار محبتهِ لوطنهِ انهُ كثيرًا ما كان يرسل الصدقات والحسنات لتوزَّع على فقراء لبنان . وقد استمرَّ سنين طويلة يُرسل المبالغ الوافرة الى اخويه المرحومين خليل ثم سلُّوم بعدهُ ليتحفَّنا بها على ذوي البأساء في عرامون مسقط رأسهِ وفي جهات الشوح متاطعة أسرتهِ الكريمة . وربَّما كان يضيف الى الدراهم الاقمشة والحبوب والدقيق لسدّ حاجات المساكين . وقد وقف اوقافًا كثيرة على الاديرة والكنائس نخصّ منها بالذكر الاملاك التي حبسها على جمعيَّة المرسلين اللبنانيين وكان بينهُ وبين منشئها الطيّب الذكر المطران يوحنَّا حبيب صداقة عظيمة . واشترط على الجمعيَّة لقاء حُبُسهِ تقدمة الذبيحة عن نيَّتهِ كل يوم مدَّة حياتهِ ولراحة نفسهِ وعن نيَّة اولادهِ بعد وفاتهِ

امَّا الذين كانوا احسنوا الى الكونت رُشيد الدحداح في بعض امورهِ فكان شكرهُ لهم جزيلًا لا ينسى قط لهم فضلهم . اخبرنا الثقة انهُ لمَّا اضطُرَّ الى الفرار بعد حوادث سنة ١٨٤٢ التجأ في دلبتا الى الخوري الفاضل يعقوب الحاج ابي المثلَّث الرحمات البطريرك حنَّا الحاج ومكث عندهُ اسبوعًا مختفيًا ثمَّ طلب منهُ عند توديعهِ مبلغًا من الدراهم فاعطاهُ الخوري ٥٠٠ غرش ولم يعد ينظر غريمهُ منذ ذاك الحين . فلمَّا كانت سنة ١٨٥٣ ارسل الكونت رشيد تحريرًا الى الخوري يعقوب يذكّرهُ بمعروفهِ ويشكر لهُ فضلهُ وكان ادرج طي الرسالة ٥٠٠٠ فرنك

بيد انَّ الذي شرَّف الكونت رُشيد فوق كل ذلك وزادهُ رفعةً رسوخهُ في الدين وتقاهُ العجيبة . فانَّهُ كان رحمهُ الله صحيح العقيدة شديد التمسُّك بالديانة الكاثوليكيَّة حريصًا على الامانة التي ورثها من اجدادهِ يفتخر بدينهِ ويناضل عن صحَّتهِ . ولهُ في ذلك كتابات عديدة تُوضح الامر بأجلى بيان منها ما اجراهُ في تونس لتعزيز ابناء دينهِ

وبقدر تقدُّمهِ في السنّ كان يزيد تورُّعًا وعبادةً ويرشد بنيهِ الى الاستيثاق بعروة الصلاح والتديُّن . ومن تقواهُ انهُ كان يخاف من النجاح العظيم الذي اصابهُ والتوفيق

الوالد في هذا العالم ومما كتبهُ الى المطران يوحنا الحبيب قولهُ: « انني خائف ان يكون الربّ قد نسيني فهذه السعادة التي انا حاصل عليها ترعبني اذ يظهر منها انَّ الله لم يَعُد يفتكر فيَّ واكتفى لي بهذه الدنيا »

كلاَّ انَّ الله لم ينسَ عبدهُ فانَّ يدهُ تعالى حلَّت عليهِ واشعرتهُ سرارًا بان لا تعيم يدوم في عالم البوار فانهُ كان سنة ١٨٦٨ قد اعزَّ اخوتهِ لديهِ المرحوم خليل الذي توفي بغتةً في الخمسين من سنهِ. ثمَّ اتت النوبة بعد ذلك الى اهل بيتهِ فقد ابنتهُ الثانية وهي في العاشرة من عمرها ثمَّ ابنتهُ روزا وهي بكر اولادهِ قصفها المنون غصنًا رطيبًا سنة ١٨٨٤ وهي في الثانية والثلاثين من عمرها. وقد سبق انها تعبدت لله في احد اديرة الراهبات فعاجلها الرب ليثيبها عن اعمالها المبرورة. لكنَّ هذه المصائب المتوالية فطَّرت كبد الوالدين الذين تجرَّعا هذه كأس الحزن بصبر جميل وباركا يد الربّ الذي يعطي ويأخذ كما يشاء.

وفي ايلول سنة ١٨٨٠ فقد الكونت شقيقتهُ راحيل قرينة الشيخ الياس ابن عمّهِ مرعي ماتت ولم تبلغ الكهولة بعد مرض لم يمهلها سوى أيام قليلة دون ان يتوقَّع احد سوء عقباهُ. فكانت هذه الوفاة كصاعقة دوت في آذان شقيقها انذرتهُ بوفاتهِ القريبة

والحقّ يُقال ان الكونت كان منذ زمن مديد يستعدُّ للاقاة ربّهِ شأن المسيحي الباسل ويكنز لهُ كنوزًا لا تفنى بالاعمال الصالحة. فلمَّا كانت اواخر سنة ١٨٨٨ اتى باريس لانجاز بعض اشغال خصوصيَّة وكان يشعر ببعض الضعف. فداهمهُ فيها المرض ولزم الفراش مدَّة اربعة اشهر وقاسى بصبر مضض اوجاع لم ينجع فيها دواء. فسلَّم روحهُ خالقها متزوِّدًا بكل أسرار الكنيسة نهار الاحد في ٥ أيار سنة ١٨٨٩ وهو لم يتمّ السادسة والسبعين من عمرٍ قضاهُ في خدمة الدين والعلم والاعمال الخطيرة والمشروعات الخيريَّة

وقد جرى لهُ مأتم حافل مشى فيهِ الاعيان وارباب المناصب. ولهجت وقتئذٍ في ذكر محامدهِ الجرائد الأوروبيَّة. امَّا جرائدنا الوطنيَّة فاثنت عليهِ ثناءً طيبًا تخصّ منها بالذكر جريدة البشير الغرَّاء في عددها الصادر في ١٢ حزيران من السنة نفسها وجريدة المصباح المنير في ٢٧ تموز منها. وقد رثاهُ حينئذٍ الشيخ الفاضل شاهين ابو جبر الخازن بقصيدة عامرة الابيات طُبعت فتوزَّعت مع البشير اوَّلها:

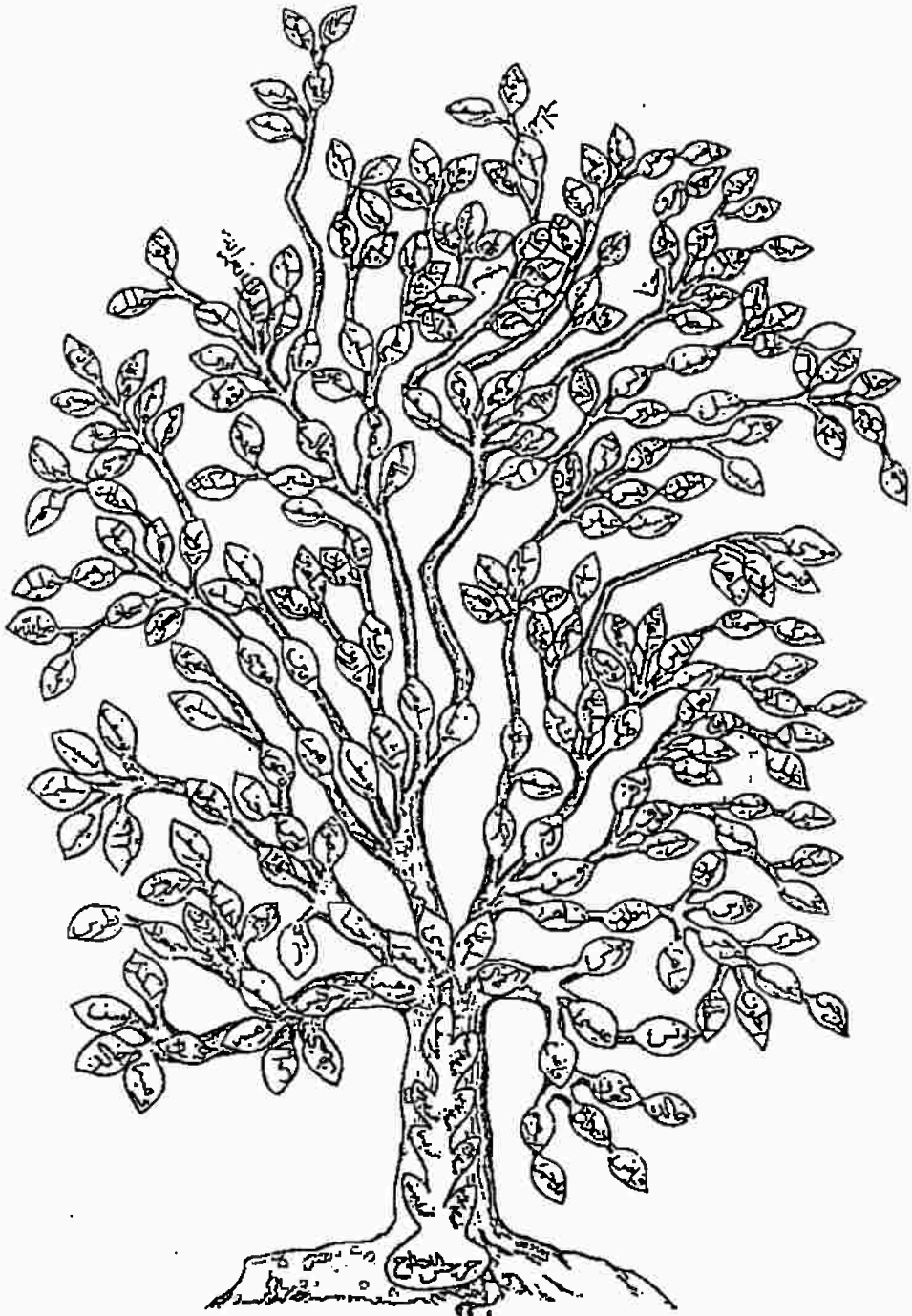

شجرة أسرة الشيخ رشيد الدحداح

ضياءٌ اورث الدنيا ظلاما ورزءٌ اعدم الرُشد الانامـا

وقال في ختامها مؤرخاً سنة وفاة المرحوم:

فناحت ارضُ باريسَ افتخاراً وعزّت اذ حوت شهماً هماما
غدا في ترجما كتراً دفيناً وجاور في الثرى قرماً فخاما
فقلتُ مؤرخاً ذكراهُ توّاً الى باريس إحمل لي سلاما

ولم يزل اسم الكونت رُشيد حتى الآن ذائعاً في باريس وديار يذكرهُ بالخير كل من عرفهُ

اما اولادهُ فتراهم محافظين على سُننهِ مقتفين بآثارهِ . وكان الكونت قد توفّق الى ان يقرنهم الى العائلات الفرنسويّة الشهيرة العريقة بالشرف . فتزوّج ثانيهم بولس سنة ١٨٨٢ بالكونتة لودوفيز ابنة البارون دي لابورد من وجوه مقاطعة الماين (le Maine) وتولى صلاة اكليلهما في ايفري ليفيك (Ivry-l'Evêque) من مقاطعة السارت (Sarthe) اسقُف مدينة مان (le Mans) بحضور اعيانها ووجوه الولاية وكان احد شاهدي العريس دولتلو ناصر الخاسفير شاه العجم في باريس . وقد فاه الاسقف بهذه النسبة بخطبة انيقة اشار فيها الى محامد الأسرتين وبارك العروسين مستمطراً لهما غيوث النعم الروحيّة والزمنيّة (١

وعُقد لالفونس ابن الكونت رُشيد البكر في السنة التالية على كريمة المركيز دي فورنس (Fournès) وهي من أسرة ترتقي الى اجداد شرفاء كانوا في خدمة هوغ كابيت جدّ ملوك فرنسة . لكنّ الله دعاهُ اليه في اوائل السنة المنصرمة فتوفي في ١٤ كانون الثاني ١٩٠٠ تاركاً ولدَين الكونت رولان والكونت غوليوم لا يتجاوز عمر الكبير ١٧ سنة

اما الاخ الثالث يوسف فتزوّج سنة ١٨٨٥ بابنة المركيز دي مولتدو (Multédo) وكان متولي صلاة الاكليل في باريس سفير الكرسي الرسولي في هذه العاصمة بحضور نبيس اساقفة باريس واعظم سراة فرنسا ورجال سياستها والسفراء

هذه لُمحة موجزة من ترجمة الكونت رُشيد وأسرتهِ الكريمة وهي مع قصرها تبيّن للقرّاء ما كان عليهِ الفقيد من المقام الشريف والمدارك الراسمة وما اداهُ لخير

١) جاء وصف هذا الزفاف في جريدة « اونيون دي لاسارت » وقد توسّع الكاتب في الكلام عن العائلتين واختصر اعمال الكونت رُشيد واولاده وذكر نسب الآنسة دي لابورد

الدين والوطن من الخدم الجليلة (١ . وكنّا نودّ ان نختم مقالتنا هذه بذكر بعض ما كتبهُ عن الكونت رُشيد وآل الدحداح بعض مشاهير الكتبة الاوربيين (٢ الّا انّ ضيق المكان يضطرُنا الى ضرب الصفح عنها لفرصة أُخرى ان شاء الله

وداع القرن التاسع عشر

وترحيب بالقرن العشرين

بقلم الاديب يوسف مراد الخوري احد تلامذة مدرسة الحكمة الزاهرة

بين كرّ القرون والاعوام حادثاتٌ تمرُّ مرَّ الغمام
فزمان يمضي بنيل مرام وزمان بغير نيل مرام

---

١) وقد ترك المرحوم خزانة كتب خطّيّة عربيّة كان قد حصل عليها في اسفاره لاسيما في مدة وجوده في تونس وقدرة وهي الآن في دينار في ملك وندبه اللذين يجهلان اللغة العربية كما قلنا

٢) واخصّ هذه الشهادات ما ورد في كتاب المسيو بوجولا (Poujoulat : *Vérité sur la Syrie*, p. 54) عن المشايخ في لبنان عموماً ومشايخ آل الدحداح خصوصاً . قال عن الكونت رُشيد :

« فهو ماروني غيور نحب لنا شهيد التعلّق بالكثلكة قد اشتهر بثبات جنانهِ وجسارتهِ وحسن دفاعهِ عن حقوق طائفتهِ وتفانيهِ في سبيل وطنهِ » . وقال في آخر هذه البذة بعد الكلام عن الشيوخ الموازنة والمحبّبين ما تعريبهُ : « ولكل من اهمّ أُسرات المشايخ في لبنان شهرةٌ خاصّة يمتازون بها عن سواهم فقد اعتاد اللبنانيون ان يقولوا انّ السيف لبني حبيش والكرم لآل الخازن وانّا بنو الدحداح فقد امتازوا بذكائهم ومعارفهم » . ولا ناخذ على المؤلف الّا قولهُ انّ العائلة الدحداحيّة تُقسم الى فرعَين وهي في الحقيقة خمسة فروع كما ترى في شجرة النسب (راجع الصفحة ٣٩٢) — وقد اتى ايضاً حصرة الاب جبّان اليسوعي في كتابهِ تاريخ الرسالة اليسوعيّة (ج ١ ف ١٨) على آل الدحداح لكنّهُ وهمَ في الفصل ١٨ بذكر الخوري « طوبيا حبيش » عند ذكره الاخ اليسوعي الفونس حيدر حبيش وهو يريد « الخوري طوبيا الدحداح نسيب والدة الشيخ حيدر حبيش انذب وُلد سنة ١٨١٨ وسُمّي فيما بعد باسم طوبيا سنة ١٨٤٣ بعد ان نبغ بين تلامذة عين ورقة . وقد خدم طائفتهُ في الاسكندريّة بحكمة ونشاط مدّة ٢٧ سنوات ومات سنة ١٨٧٩ في الرياء شهيد غيرتهِ وتعبتهِ للقريب . وقد اخذنا العجب من ناشر تاريخ الكنيسة المارونيّة في مصر (في مجلة مار لويس قبل ١٠ سنوات) كيف سها عن ذكر الخوري طوبيا الدحداح مع شهرتهِ